الاستصـــراخ

في روميـــات فـــارس العـــرب

(٣٢٠ – ٣٥٧هـ)

د. إيناس عبد الرحمن زايد

بقسم اللغة العربية بكلية الدراسات الإسلامية

جامعة بغداد – جمهورية العراق

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٨ م

الملخص

تناولت في هذه الدراسة شعر الاستصراخ في روميات فارس العرب (أبو فراس الحمداني) ودراسة شكله المادي والمعنوي ، الذي تمثل في بأشعاره الرومية فاستشهدتُ بالنصوص التي حوت الاستصراخ وقمت بتحليلها أدبياً ونفسياً محددة ما فيها من مواضيع كالشكوىٰ والفخر والمديح والرثاء ..... وغيرها وما آلت إليه حالهُ – أبو فراس – في بلاد الروم مستصرخاً بأشعار موجهة إلىٰ سيف الدولة خاصة وإلىٰ أهله وأقاربه عامة .

وقد سبقتني العديد من الدراسات ولكن في الموضوع دون العصر ، فقد دُرس الاستصراخ في العصر الأندلسي دون العصور الأخرىٰ ، وكأن ما حدث من انقسامات ونكبات لم تحدث في العصور الأخرىٰ . ومنها علىٰ سبيل المثال لا الحصر : شعر الاستصراخ في الأندلس عزوز زرقان ، شعر الاستصراخ الأندلسي الرؤية في قراءة الجمالي والتشكيل فتيحة دخموش ، شعر الاستنفار والاستصراخ (عصر الدول والإمارات) شوقي ضيف .

وجل ما استخدمته في أثناء حديثي عن الشاعر هو لقبه – أبو فراس- لأنه أخف وأسهل وأقرب للحديث ، ولكني أحببت أن أشير إلىٰ لقبه الآخر الذي أهمله كثير من البحوث والدراسات ألا وهو – فارس العرب- وإخراجه للنور من خلال تسمية البحث به، فمن وجهة نظري أنه لو ذُكِر داخل صفحات البحث قد لا يفي بالغرض فارتأيت أن أضعه في صدارة البحث ليكون بارزاً للعيان.

وبما أنه علم من أعلام عصره، تجاوزت عصره وحياته وذلك لشيوع الدراسات وكثرتها فيه، فضلاً عن قصور البحث لاستيعابها، وعلىٰ أساسه قسمت البحث بعد الملخص مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث .

جاء في المقدمة حديثنا عن دوافع البحث وأهميته.

أما التمهيد فتحدثنا عن الحركة العلمية وتطورها في القرن الرابع .

أما المبحث الأول فكان حديثنا عن الفروسية والفارس.

والمبحث الثاني أثبتنا فيه أهم الآراء النقدية لأبي فراس.

وجاء المبحث الثالث حديثنا عن الأشعار الرومية الاستصراخية.

ثم ختمنا بخاتمة حملت أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

المقدمة

تقوم هذه الدراسة بالقاء الضوء علىٰ جانب من جوانب الاستنجاد والاستغاثة، وهو الاستصراخ في عصر تميز بالتجديد، والصنعة، والصياغة وشهد ولادة عمالقة الشعراء – العصر العباسي – والغريب في الأمر أن كل من استشرته في الموضوع أكد بأن الشعر العباسي لا يحتوي علىٰ صرخات، وإنما هو مختص بالشعر الأندلسي، مما دفعني للبحث فيه ودراسته، وبعد طول بحث توجهت أنظاري إلىٰ علم من أعلام العصر العباسي وهو الحارث الحمدوني فارس العرب والمعروف بأبي فراس.

وربما لا أضيف جديداً إذا قلت إنه فحل من فحول شعراء القرن الرابع ، وقد تتبعت ما كتب حوله من الدراسات لاستخراج كل ما هو فني وأدبي وكان هذا أول أهداف البحث واهتماماته . وعند التعمق في شعرهِ – أبو فراس – نظرت إلىٰ الروميات فوجدت كافة الدراسات حولها متشابهة النظير، ووجدت أنها أشعار حزينة باكية ، ونحن لا نختلف عنه في شيء ، ولكني ارتأيت أن أنظر إلىٰ زاوية أخرىٰ عسىٰ أن أجد ما لم يجده غيري ، فما كان الاستصراخ إلا نوراً أضاء ما حولي . لأكتشف جانبًا جديداً من جوانب الإبداع في روميات أبي فراس . لأنها تمثل القمة في الإحساس بالوجع لشاعر حلق في عالمي الشعر والفروسية، فقد عبر عن ثورته وغضبه بصرخات شعرية رافضًا بها ما وقع عليه.

وبذلك أمكنني التعرف علىٰ جانب مهم من جوانب الشعر العباسي ، وقد كان خافيًا عن الكثير من الدراسات ، فضلاً عن ذلك كان هذا البحث محاولة لإظهار كل ما هو جديد وتقديم الفائدة المرجوة للمهتمين بالأدب العباسي عامة وبأبي فراس خاصة .

تمهيد

نهضة الحركة العلمية

استقىٰ العباسيون الثقافة من عدة ينابيع وطلبوها من عدة منافذ متنوعة لإضافتها إلىٰ ثقافتهم العربية، فلقد فتحوا أبوابهم لجميع الأمم والأجناس المختلفة للاستفادة من ثقافاتهم لتكون منصهرة في الكيان العباسي والذي عد من العصور الذهبية. ومن هذه العوامل الترجمة وبما أن الخليفة المنصور من الرواد في طلب العلم والمعرفة، فقد ترجمت في عهده كثير من الكتب من اللغات الأخرىٰ، وقد لمعت أسماء عدة في عصره وكان أهمهم أبو يحيىٰ البطريق والذي اشتهر بالترجمة للطب اليوناني، وقد سار الرشيد علىٰ نهج المنصور فأنشأ دار الحكمة وجعل فيها طائفة من المترجمين أمثال أبي حنا بن ماسويه(١).

واتصلوا بالثقافات الهندية ونقلوا عنها الرياضيات والفلك والطب ومن هذه الكتب عقاقير الهند وأجناس الحيات وسمومها(٢).

وزاد نشاط الحركة الفكرية في التأليف والتصنيف ونظم الشعر، ومنهم من أبدع في الأدب والغناء أمثال أبو فراس وإبراهيم الموصلي وابنه(٣).

وزاد أيضـًا عدد العلماء وكان جُلّ أجناسهم من الأعاجم وقد أشار ابن خلدون إلىٰ ذلك في قوله: (لم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم)(٤).

---

(١)ينظر: عيون الأنباء ح٢/ ص٤٣، ١٢٣، ١٧٤.

(٢)ينظر: الفهرست ص٣٤٢.

(٣)ينظر: ضحىٰ الإسلام ح١/ ص١٩٠.

(٤)مقدمة ابن خلدون ص٥٤٤.

أما الشعر فقد نال شهرة واسعة ونصيباً وافراً من القول والنظم، وذلك لحب الخلفاء له وعشقهم فيه، ففيه ترويح عن النفس وتطريب للشعور فشجعوا علىٰ نظمه من خلال فتح أبوابهم للشعراء واحتضانهم في مجالسهم وإغداقهم للأموال عليهم . فامتلأت تلك المجالس بالمجيدين المحظوظين بمال الخلفاء، ومنهم علىٰ سبيل المثال لا الحصر: إن إبراهيم بن هرمة قد نال عشرة آلاف درهم لمدحه للمنصور(١)، ومن الطريف ما يُحكىٰ أن إسحاق بن إبراهيم الموصلي نال عشرين ألف درهم لمدحية قالها في الرشيد فقال له الرشيد: لله أبيات تأتينا بها ما أتقن أصولها، وأبين فصولها، وأقل فضولها، فقال له إسحاق: والله يا أمير المؤمنين لا قبلتُ منها درهماً واحداً. فقال: ولم؟ فقال: لأن كلامك خير من شعري. فأعجب الرشيد بذلك فأمر له بأربعين ألف درهم(٢).

وهكذا اتسمت الخلافة العباسية في بغداد با تساع الحركة العلمية والحضارية في مختلف جوانب الفن والأدب والعلم، وأصبحت ملتقىٰ العلماء، ومنتدىٰ الأدباء ومجلس الشعراء، يأتونها من كل فج؛ طلباً للمال والجاه والسلطة وكذلك العلم، فضلاً عن التمتع بملذاتها ومناظرها الحضارية الراقية وعلىٰ أساسه بنىٰ العرب أركانهم فيها ودعموا أسس مجدها الذي ازدهر في القرن الثالث علىٰ أيدي أعظم خلفاء العصر أمثال: المنصور– الرشيد – المأمون – المعتصم – الواثق – المتوكل امتداداً إلىٰ القرن الرابع الذي تميز بالنضوج الثقافي عامة والأدبي خاصة(٣) وبالمقابل اتسعت الفجوة الاجتماعية وشهدت القمة في

(١)ينظر: جمع الجواهر، ص١٠٣.

(٢)ينظر: زهر الآداب ح٢/ ص١٠١٤.

(٣)ينظر: تاريخ آداب اللغة العربية ح٢/ ص٣٢٥؛ وتاريخ الأدب العربي، ص٢١٠، الأدب في عصر العباسيين من بداية القرن الرابع إلىٰ نهايته: ح٢/ ص.

الصراعات السياسية من نزاع واقتتال وفوضىٰ، وخير من يمثل لنا هذه الصورة هم الشعراء والكتاب لما لهم من علاقة وثيقة بطبقات المجتمع المختلفة وبعد أن كانت الدولة الإسلامية خاضعة لكيان واحد في – بغداد – تمزقت الدولة وضعفت الخلافة واستقلت الأمصار بذاتها بعيداً عن بغداد(١).

وعلىٰ أثرهذا أصبح للثقافة والأدب عواصم أخرىٰ تنافس بغداد أمثال: حلب – القاهرة – أصبهان بعد أن كانت بغداد هي العاصمة الثقافية الأولىٰ بلا منازع وهذه الدويلات المستقلة أصبحت تنافسها في جذب أصحاب الفكر والعلم واحتضانهم باعتبارهم وسيلة من وسائل الإعلام(٢).

وأهم ما تميز به هذا العصر في انقساماته ظهور قيام دولة بني حمدان في الشام (٣)، وعلىٰ أثرها سطع نجم أديب وفارس وشاعر طموح في عالم الأدباء وأهل العلم والثقافة وهو الأمير سيف الدولة الحمداني – أمير حلب – الذي أغدق علىٰ الأدباء والمفكرين لذا (لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك – بعد الخلفاء – ما اجتمع ببابه شيوخ الشعر ونجوم الدهر)(٤) ، فذاع صيته في جميع أنحاء البلاد ووفد عليه العديد من الشعراء والأدباء، فعاشوا في كنفه متنعمين بجوده وكرمه حتىٰ لقبه أبو فراس (بأبي الفياض) لفيض كرمه ، يقول(٥):

أبو الفيض مارىٰ الناس حولاً محرمـًا وكان له جَّد من القوم مائرُ

(١)ينظر: ظهر الإسلام: ح١/ ص٩٠.

(٢)ينظر: الدولة الحمدانية ح٢/ ص٢٥٢، والشعر في ظل سيف الدولة ص١٣٦.

(٣)ينظر: أعلام النبلاء ح١/ ص٢٨٦.

(٤)اليتيمة: ج١/ ص٣٧.

(٥)الديوان: ص١١٧.

وعلىٰ أساسه قامت نهضة عظيمة مزدهرة أفاضت علىٰ كل حركات الشعر واللغة والنحو، وأصبحت حلب مجمعاً للعلماء والمفكرين والأدباء والفلاسفة والمتناظرين فأسس في هذه المدينة (دولة للأدب لم يقم مثلها في الشام منذ عشرين قرناً إلىٰ يومنا هذا)[١].

وقد ذكر الثعالبي حديثاً عن بني حمدان وما لهم من فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة وكونهم ملوكاً وأمراء شغفوا بالأدب والمجد والكرم والجمع بين أدوات السيف والقلم[٢]. أما بديع الزمان الهمذاني فقد أنشأ مقامة أسماها ((المقامة الحمدانية)) صور فيها كل ما يجري في مجلس سيف الدولة[٣].

يحق لنا أن لا نستغرب من ظهور أسماء وشخصيات متميزة في الساحات الحمدانية كان لها دور مهم في التأثر بالتطور العلمي أمثال: أبو هلال العسكري، ابن خالويه، القاضي الفاضل، ابن جني، ابن سينا ، الصنوبري، كشاجم، الوأواء الدمشقي .... وغيرهم كثير ممن كان له دور في ازدهار البيئة الحضارية وتطورها فضلاً عن انتشار ظاهرة الموسيقىٰ والغناء ومجالس الشراب. وبالتأكيد لا ننسىٰ أهم شخصيتين حلقتا في العالم الحمداني وهما المتنبي وأبو فراس الحمداني إذ عاش – أبو فراس- في بيئة وعصر مليء بالعلماء والمشاهير من الكتاب والشعراء. فقد ترعرع في حضرة سيف الدولة ملتقياً بالفحول وأهل المنطق والفلسفة. وعلىٰ أساسه اصطبغ الشعر بألوان جديدة وخصائص متعددة حيث لجأ الشعراء إلىٰ الاستعارات والمجازات والفنون البلاغية المتعددة. ونلمس ذلك جلياً في ديوان أبي فراس، وكيف لا وهو ابن عصره يؤثر ويتأثر فيه.

---

(١)أعلام النبلاء ح١/ ص٢٨٧

(٢)اليتيمة: ج١/ ٣٧.

(٣)ينظر في ذلك المقامات لبديع الزمان الهمذاني.

المبحث الأول

الفـارس والفروسيـة

الفروسية بمعناها اللغوي الواسع هي: الفرس واحد الخيل سمي به لرقة الأرض بحوافره، وأصل الفرس الدق أي دق العنق، والفرّاس وصف للمبالغة تقول أسدٌ فرّاس أي كثير الافتراس. والجمع أفراس للذكر والأنثىٰ سواء. أما الفارس صاحب الفرس والجمع فرسان وفوارس. وقد فُرس فلان بالضم يفرس فرسة إذا حَذِقَ أمر الخيل ويقال: رجل فارس وهو الثبات عليها والحذق بأمرها(١).

وللفروسية معنيان الأول فني وهو اتقان ركوب الخيل في الحرب والصيد والمعرفة بأمورها وأحوالها وأصالتها. والآخر خُلقي وهو يشمل القيم الخلقية الرفيعة التي يعتز بها العرب كالشجاعة والصبر والعفة ونجدة المستغيث ... وغيرها(٢).

فضلاً عن ذلك قول الشعر والذي يعد قيمة من قيم الفروسية فإذا اجتمع قول الشعر والفروسية في شخص واحد بلغ أرفع درجة؛ لأن (الجمع بينهما معناه الوصول إلىٰ أقصىٰ مراتب الفروسية)(٣) ، وعبثًا نبحث عن فارس لم يخط له خط من الشعر؛ لأنه يرىٰ في الشعر (وجه الفروسية المشرق)(٤) ، فمن خلاله يعبر عن ذاته مصوراً عواطفه ومشاعره وانفعالاته. وفارس العرب كان واحداً من

(١)ينظر لسان العرب وتاج العروس والقاموس المحيط ومعجم مقاييس اللغة في مادة فَرَسَ.

(٢)ينظر: الفروسية في الشعر الجاهلي ص٨، وتقاليد الفروسية عند العرب ص٥.

(٣)سيرة عنترة ص٤٧.

(٤)ينظر: تقاليد الفروسية عند العرب، ص٧١.

أصحاب السيف والقلم، فهو أبو فراس الحارث بن أبي العلاء بن سعيد التغلبي[١]، وقد أسماه والدهُ الحارث وكناه أبا فراس وكلاهما الأسد[٢]. ولم يخب ظنه فقد كان الحارث أسداً فارساً في الساحات الميدانية والمجالس الشعرية، فقد عرف الحارث بكنيته أبو فراس، فهو لقب لم يعرف إلا به، فكل الدراسات القديمة والحديثة لم تذكره إلا بأبي فراس، ولكنه عرف بألقاب أخرىٰ،نظراً لشجاعته وفروسيته فقد شهد له بالشجاعة والفروسية كل العرب من حوله ولاسيما في صباه تلقىٰ تحيه من ابن عمه الشاعر أبي زهير منحه فيها لقب " فارس العرب" إثر موقفه الشجاع في وجه القرامطة فأرسل إليه قائلاً[٣]:

يـــا خيـر منتجب ينميه خير أب *** مخيلتي فيـكَ لم تكذب ولم تخب
إن كان وجهك لم تخطط عوارضـه *** فأنت كهل الحجي والفضل والأدب
وقفت يا بـــن سعيد وقفة شهرت *** لازلتُ أدعوك فيها " فارس العرب"

وقد اعتز كثيراً الحارث بهذا اللقب، فأصبح موضع فخر له في مقطوعة أرسلها إلىٰ سيف الدولة عندما انتصر وظفر بابن عقيل ونمير وكلاب بعدما عاثوا في البلاد، قائلاً[٤]:

يا ضارب الجيش بي في وسْط مفرقه *** لقـد ضربت بنفس الصـارم الغضِبِ
حتـــىٰ تقول لك الأعداء راغمــة *** "أضحىٰ ابن عمك هذا فـارس العرب"

(١)ينظر وفيات الأعيان ح٨/ ص٣٤-٣٥، أعيان الشيعة ح١٨/ ص٣٤-٣٥، وجمهرة أنساب العرب ٣٠٣.

(٢)ينظر لسان العرب مادة فَرَسَ ومادة حَرَثَ.

(٣)ينظر: الديوان ج٢/ ص١٥٢. طبعة ١٩٤٥.

(٤)الديوان، ص٥٢.

لم تشهد الكتب التاريخية الأدبية لشجاعته – أبو فراس– فقط، وإنما شهدت بأنه أشهر أسير عرفته، فلا يذكر أسير إلا ذكر أبو فراس، حتىٰ إذا ما أراد باحث دراسة محنة أسير ما إلّا وقارنه مباشرة بمحنة أبي فراس، وإن بعدت الأزمنة واختلفت الأمكنة، ومنها علىٰ سبيل المثال لا الحصر (روميات أبي فراس الحمداني وحبسيات مسعود بن سعد سلمان– دراسة مقارنة) للباحث محمد هادي هوادي، وفي صحبة الأميرين (أبو فراس الحمداني وعبدالقادر الجزائري) للدكتور أحمد درويش، و(السجن في شعر أبي فراس الحمداني والمعتمد بن عباد) للدارس عامر عبدالله وغيرها. ولا يعود السبب لكونه – أبو فراس– قضىٰ أطول مدة في الأسر أو كان أكثر ألمـًا في سجنه، بل لقدرته التعبيرية الشعرية الرائعة المتميزة بالأنين ما بين الصمت والصراخ داخل جدران السجن الضيقة، فهو لم يكن إنسانـًا عاديـًا يقضي أوقاته بالعمل ثم يكملها عائداً لبيته، وإنما كان أميراً محلقـًا في سماوات مفتوحة بلا حدود ما بين الإمارة والجيش والمجلس، لذلك فالسجن يعد مكانـًا ضيقـًا لمن تعلم الحرية والانطلاق.

وكما هو معروف أن لكل حادثة نتاجها، فكما كانت الحماسة نتاج أبي تمام في سجنه الثلجي، فالروميات نتاج وصنيع أبي فراس في سجنه الرومي، فما أن أطلقها من لسانه ملامسة القلوب والأسماع حتىٰ هزت مشاعر القرّاء وأهل الأدب والتاريخ فأثارت عندهم التساؤلات وحفزتهم علىٰ البحث فيها ودراستها والإشارة بأهميتها وجمالها علىٰ مر السنين. لذلك لن نطيل في الحديث عنها ولكن من باب التذكير بالشيء لا غير، فمما قيل عنها (كن كيف شئت من قوة القلب ثم اقرأ روميات أبي فراس فستعرف أن القوة الإنسانية في حاجة إلىٰ من يبكيها حين تزول، وليت القلم بطأ وعني لأشرح بعض ما أريد .... ثم يضيف قائلاً: ما قرأت روميات أبي فراس إلا تمثلت زوال الجبال تمثلت عنفوان

الفارس الفاتك الذي قضت الأقدار بأن يمسي وهو في ظلمات من ذلة في الأسر وهزيمة القلب وانصهار الروح، لأتذكر آلام المتنبي ولا أشجان المعري ولا وجدان ابن زيدون كل أولئك أحمالهم خفاف بجانب ما حمل أبو فراس وما ظنكم بقائد عظيم يذله الأسر حتىٰ يعود طفلاً يتوجع من جراحه ويشكو لأمه)[١].

أما الثعالبي فيقول عنها: (إن الروميات لو سمعته الوحوش أنست أو خوطبت به الخرس نطقت أو استدعىٰ به الطير نزلت)[٢].

فأبو فراس ورومياته هما وجهان لعملة واحدة، ولم نجد أحداً من الأدباء والمؤرخين قد أطلق عليها تسمية أخرىٰ إلا ما كان لابن شرف القيرواني حيث أطلق عليها (الأسريات)[٣] نسبة إلىٰ الأسر الذي عاشه الشاعر من حياته. أما ما عملته الباحثة نبيلة إبراهيم بأن تجعل للروميات فارساً آخر وهو " المتنبي" في أطروحتها للماجستير بعنوان (روميات المتنبي حلقة من حلقات الثقافة بين العرب والروم)[٤] ، التي تعرض العلاقة بين الروم والعرب من قبل الإسلام حتىٰ سقوط الدولة الرومية[٥]، فمن وجهة نظري أنها مهما حاولت هذه الباحثة المحترمة من أن تثبت أي نتائج معينة، فالروميات ليس لها إلا فارس واحد ورجل واحد ولسان ناطق بها واحد وهو أبو فراس.

إنه علىٰ الرغم من أن عمر أبي فراس كان قصيراً فهو لم يتجاوز السابعة والثلاثين (وهي سن لم تدعُ له إلا نحو خمسة عشر عاماً أو أكثر قليلاً بعد سن

---

(١)الموازنة بين الشعراء ص ٣١١، طبعة ١٩٧٣.

(٢)اليتيمة ، ج١/ ص١١٢.

(٣)ينظر أعلام الكلام ص٢٥، طبعة ١٩٢٦.

(٤)نوقشت هذه الأطروحة سنة ١٩٥٤.

(٥)ينظر رحيل نبيلة إبراهيم رائدة دراسات التراث الشعبي في مصر .

العشرين التي يبدأ الأبطال بعدها عادة كتابة تاريخهم)[١] ، إلا أنه استطاع وبكل جدارة أن ينحت له مكانـًا بين أعظمهم وأن يكون نداً لأفضلهم، وأن يأخذ مكانـًا في الدراسات ويخط له خطـًا في صفحات التاريخ والأدب شاعراً وفارسـًا، مما أثار إعجاب سيف الدولة فيه مفضلاً إياه علىٰ سائر أبناء عمومته؛ لأنه رأىٰ في هذا الطفل اليتيم الرجل السليم والقائد الحكيم. فصورة الأم الثكلىٰ لأب غائب مغدور أحيت فيه تطلعاته إلىٰ البطولة والفروسية ثابتـًا قولاً وفعلاً، فضلاً عن تطلعاته الحادة إلىٰ مجد يحققه عما فات أباه أن يحققه[٢]، فدفع حياته ثمنـًا لذلك سنة (٣٥٧هـ)[٣].

(١)في صحبة الأميرين ص٧٣.

(٢)ينظر أبو فراس الموقف والتشكيل الجمالي ص٨٦.

(٣)ينظر زبدة الحلب ح١/ ص١٥٦-١٥٧.

المبحث الثاني

فارس العرب في ميزان النقد

إن المتتبع لكبريات الكتب، يجد أن أبا فراس لم ينل من الدراسة والاهتمام ما يليق بمكانته الشعرية، فكل ما قيل عن أبي فراس في القديم لا يتجاوز ترجمة لحياته، أو مختارات شعرية أو إشارات نقدية عابرة، وبالرغم من أن ذكر أبي فراس قد ارتبط بذكر المتنبي، فلا يكاد يذكر أحدهما إلا وذكر معه الآخر إلا أنه يلفتنا ذلك القدر الكبير والعناية البالغة التي لقيها شعر المتنبي في مقابل الإشارات العابرة، والكتابات الضئيلة التي حظي بها أبو فراس.

ومن أوائل من نظر إلىٰ شعره بكل إعجاب وتقدير ابن خالويه فهو أستاذه قبل أن يكون ناقده فضلاً عن أنه كان جامع ديوانه، ولولاه لما خرجت أشعاره إلىٰ الدنيا ولما وصل إلينا ديوانه، ولما كنا له قارئين ومستمعين وناقدين ومقارنين.

ومن الذين أعجبوا بشعره وبلاغته (الصاحب بن عباد) وقد سجل هذا الإعجاب الثعالبي إذ يقول: (بُدئ الشعر بملك وخُتم بملك، يعني امرأ القيس وأبا فراس)[1].

وقد خصص الثعالبي لأبي فراس جزءاً كبيراً في يتيمته، وقد بدا إعجابه به واضحـًا، إذ يقول: (كان فرد دهره وشمس عصره، أدبا، وفضلا، وكرما، ونبلا، ومجدا، وبلاغة وبراعة، وفروسية، وشجاعة، وشعره مشهور سائر بين الحسن والجودة، والسهولة والجزالة، والعذوبة، والفخامة والحلاوة، والمتانة، ومعه رواء الطبع، وسمة الظرف، وعزة الملك، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في

(١)اليتيمة: ج١/ ص٥٧.

شعر عبدالله بن المعتز، وأبو فراس يعد أشعر منه عند أهل الصنعة ونقدة الكلام)[١].

ويفرد له حديثًا خاصًا عن روملياته، قائلاً فيها: (وقد أطلت عنان الاختيار من محاسن شعر أبي فراس وما محاسن شيء كله حسن؟وذلك لتناسبها، وعذوبة مشاعرها، ولاسيما الروميات التي رمىٰ بها هدف الإحسان، وأصاب شاكلة الصواب)[٢].

وكان لابن شرف القيرواني رأي حيث يقول بأنه: (ملك زمانًا وملك أوانًا، وكان أشعر الناس في المملكة وأشهرهم في ذل الملكة وله الفخر بأن لا تعارض والأسريات التي لا تناهض)[٣].

ويدهشنا أن ابن رشيق القيرواني كان منحازاً إلىٰ المتنبي علىٰ حساب أبي فراس، إذ يقول: (وأما أبو الطيّب فلم يذكر معه شاعر إلا أبو فراس وحده ولولا مكانه من السلطان لأخفاه)[٤] ، ولكننا إن أخذنا بعين الاعتبار قوله في المتنبي فمن غير المعقول أن نستسلم لرأيه في أبي فراس، فلا يمكن أن يكون قرابته من سيف الدولة هي التي جعلته شاعراً، فله شعر جيد قد اعترف به العديد من النقاد.

وإذا ما نفذنا الىٰ الدراسات الحديثة فقد تنوعت آراء النقاد في شعر أبي فراس، ومنهم جرجي زيدان الذي تناول حياته وشعره في كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية)، معتمداً فيه علىٰ كتابيّ الثعالبي وابن خلكان ولم يضف إليهما شيئًا جديداً.

---

(١)م. ن: ج١/ ص٥٧.

(٢)م.ن: ج١/ ص١١٢ .

(٣)أعلام الكلام: ص٣٠، طبعة ١٩٥٣.

(٤)العمدة ح١/ ص٨٩ .

وينقل لنا بطرس البستاني أقوال الصاحب والثعالبي ثم يحكم عليه في كتابه بأنه يستوي علىٰ الدرجة الرفيعة من الشعراء المبدعين، ولكن الأدباء المتقدمين لم يلتفتوا إليه كل الالتفات لأسباب منها أن معاصرته للمتنبي أخفت صورته، كما أخفت صورة غيره من الشعراء لكنه يرىٰ أن أبا فراس أظهر منهم بسبب مكانته في دولته.

وعلىٰ الرغم من إعجابه بأبي فراس وشعره إلا أنه يرىٰ أن عمق العاطفة لديه قد جعل خياله ضيقـًا محدوداً يقول: (وغلب علىٰ شعره العاطفة لأنه لم يتكلفه تكلفـًا وإنما جرىٰ به طبعه الصحيح، وهو في أشد حالات التأثر محاربـًا كان أو أسيراً ....، واستسلامه إلىٰ العاطفة المطلقة جعل من خياله ضيقـًا، فلم يفسح له مجال التصوير والتزيين فقد كان يصف حالته في الأسر كما يحسها ويشعر بها، لا كما تجسمها المخيلة وتوسعها، وكان يصف الحروب ويذكر الوقائع دون أن يلجأ إلىٰ الخيال لتلوينها وتعظيمها)[1].

ولحنا فاخوري دراسة جيدة عن أبي فراس قسم فيها دراسته إلىٰ حياته وآثاره وفنونه وشاعريته وفنه ورومياته التي قال عنها بأن لأبي فراس عاطفة قوية عميقة صادقة ومن عاطفته استمد معانيه فما هو بمتفلسف أو بمفكر وإنما هو الأمير رقيق القلب[2].

أما زكي مبارك في موازنته، فقد أعجب بأبي فراس إعجابـًا شديداً، ورأىٰ أن شعره أشد تأثيراً، وأكثر عاطفة من شعر المتنبي والمعري وابن زيدون، يقول: (لا تذكروا آلام المتنبي، ولا أشجان المعري، ولا مجد ابن زيدون، كل أولئك

(١)أدباء العرب في الأعصر العباسية ٣٧٥.

(٢)تاريخ الأدب العربي: ص٦٢٦، (حنا فاخوري).

أحمالهم ضفاف بجانب ما حمل أبو فراس وما ظنكم بقائد عظيم يذله الأسر حتىٰ يعود طفلاً يتوجع من جراحه ويشكو آلامه)[١].

أما أحمد أبو حاقة، فيتحدث عن أبي فراس والمتنبي مقارنًا بينهما، ومتحدثًا عن أسباب الخلاف بينهما في بلاط سيف الدولة، ويرىٰ أن أبا فراس كان ينحو نحو الطبع والعفوية من حيث المعاني، ولم يكن يتكلف في اختراعهما، وكان تعبيره عما يجول في نفسه من خواطر وأفكار تعبيراً سهلاً، وقد استخدم المحسنات البديعية والمجاز دون إسراف، وهو بهذا قد جرىٰ علىٰ عادة الشعراء في زمنه، أما المتنبي فقد أراد أن يجعل الشعر عملاً فكريًا فيه عمق واتساع في معطيات العقل، واستقصاء للمعاني الشاملة، علىٰ عكس ما كان شعر العرب في الزمن القديم[٢].

ولمصطفىٰ الشكعة في كتابه (فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين) مقارنة أخرىٰ يوضح فيها عوامل القوة والضعف لكل من المتنبي وأبي فراس، ودفعه إلىٰ ذلك إهمال شأن أبي فراس وصحبه من بقية الشعراء الممتازين في مقابل العناية التي حظي بها المتنبي من جمهور الدارسين والنقاد.

وقد أبدىٰ الشكعة رأيه في ذلك قائلاً: (فإهمال شأن أبي فراس أمام المتنبي جاء نتيجة لقصور الذوق الفني، وسقم الإحساس الشاعري عند النقاد العرب، ونتيجة للمؤامرة التي حاكها المستشرقون ضد كل ما هو حمداني)[٣].

وقام الدكتور عبدالجليل عبد المهدي بدراسة قيمة عن أبي فراس تحدث فيها عن شخصيته كما تبدو في شعره، ودرس موضوعات شعره ورومياته، وخصائص

---

(١)الموازنة بين الشعراء ص٣٠٥-٣٠٦، طبعة ١٩٣٦.

(٢)ينظر أبو فراس الحمداني ص١٩٦.

(٣)فنون الشعر في مجمع الحمدانيين ٥٣٥.

شعره الفنية، وقد أشار الكاتب إلىٰ أن التاريخ قد ظلم أبا فراس، ولم يعطه حقه في الماضي، أما في الحاضر فإن أبا فراس ما يزال ينتظر من يدرسه دراسة جديرة به يقول في مقدمته: (إن اختيار هذا الموضوع يعود إلىٰ عوامل عديدة، فأبو فراس من شعراء العربية المشهورين، ولكنه لم ينل حظه في تاريخ الشعر العربي، قديماً وحديثاً، ففي الماضي لم يلتفت إليه الأدباء والنقاد القدامىٰ حق الالتفات باستثناء الثعالبي)[١].

وفي نظر الأميني النجفي أن أبا فراس متقدمٌ علىٰ سائر الشعراء يقول كان الرجل (بارع في صيغة القول وقيادة العسكر ومتقدم في المضامين، جمع بين هيبة الملوك وظرف الأدباء، وضم إلىٰ جلالة الأمراء لطف مفاكهة الشعراء وجمع له بين السيف والقلم)[٢].

أما فيما يخص المستشرقين الذين تناولوا أبا فراس بالنقد، فقد كان من أهمهم بروكلمان الذي وضع أبا فراس في منزلة أعلىٰ من منزلة أبي الطيب جاعلاً منه (أحد أعاظم الشعراء أو علىٰ الأقل خاتمة الشعراء العظام)[٣].

أما بلاشر في كتابه الذي وضعه عن المتنبي، فقد تحدث عن أبي فراس في عدة مواضع، وتحدث عن الخلاف الذي دار بينهما يقول: (ولعله قبل تشكيل حلقته، عصبة مناوئة، انضم إليها جميع الذي استثارتهم أعمال الشاعر، والذين خشوا فقدان صلات الأمير، وكان روح هذه العصبة أبو فراس الحمداني، ابن عم سيف الدولة فإن حقد هذا الرجل علىٰ المتنبي مرده إلىٰ نفور فطري)[٤] ، وقد أعجب

(١)أبو فراس الحمداني حياته وشعره ص٣ المقدمة.

(٢)الغدير ح٣/ ص٤٠٥.

(٣)تاريخ الأدب العربي (بروكلمان): ج٢/ ص٩٠.

(٤)أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي ص٢٠٥.

بشخصيته وصورته المأساوية بعمر لا يتجاوز السابعة والثلاثين مشبهـًا إياه بصورة الشاعر الفرنسي شارل دورليان[١].

أما آدم ميتز بعد أن قدم لنا صورة مشوهة للحمدانيين وأمرائهم، وذلك بأنهم أسوأ من يمثل خصال البدو[٢]يقلل من شأن أبي فراس مهاجمـًا شعره وقصائده التي قالها في بلاد الروم بأنها ما هي إلا نثر مسجوع[٣].

وزاد آخرون طبقة خامسة وهي طبقة المولدين، قالوا: كأبي نواس والرقاشي والخليع ونظرائهم، ورأسهم أبو نواس. ثم تبعهم بعدد كبير من الشعراء ، بعض الناس يجعلهم طبقة متداركة، وبعضهم يلحقهم بالمولدين، وبعضهم يطلق (المحدث) علىٰ جميع ما بعد طبقة الإسلاميين ويجعل الجميع طبقة واحدة وهي الطبقة الرابعة، ويسمها تارة المحدثين وتارة المولدين .... وجعلوا من جملة شعراء هذه الطبقة أبا تمام وأبا عبادة البحتري وعلي بن جبلة وعلي بن الجهم وابن الرومي وديك الجن الحمصي .... ثم من جاء بعدهم المتنبي وأبي فراس الحمداني ...[٤].

(١)ينظر: م. ن، ١٩٤-١٩٥.

(٢)ينظر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج١/ ص٢٨.

(٣)الحضارة الإسلامية ح١/ ٣٨١.

(٤)ينظر : أنيس السمير في نوادر الفرزدق والجرير (رسالة في نيل دبلوم الدراسات العليا)، ص١١٥.

المبحث الثالث

الروميات المستصرخة

قد يصيب الإنسان أزمات قاسية متعددة تدفعه نحو الجزع فيستنصر بها الضعيف القوي ويستصرخه، وكانت سابقًا تقوم بالنظرة المبنية علىٰ العصبية القبلية، ثم أصبحت في الإسلام ذات دوافع دينية، بعد ذلك تطورت لتقوم علىٰ أسس مادية، اجتماعية، أخلاقية وغيرها.

والاستصراخ هو ما استصرخت الحُبلىٰ فيه، أو ما يستصرخ الإنسان بصوت عالٍ لمصرخ ليعلمه بأمر حادث ليستنجد به[1]، قال تعالىٰ:﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾[2].

وقد تأتي بأشكال ومعانٍ متعددة منها الاستغاثة كقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾[3].

والدعاء كقوله تعالىٰ: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾[4].

ومن أشهر أقوال عنترة فيها (أن الناس يدعون في الفزع)[5] ، أي يستصرخون ويستنجدون عند الشدائد، ومنها في قول الرسول محمد (صلىٰ الله عليه وسلم): "إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع"، والفزع في كلام العرب علىٰ

---

(١)ينظر لسان العرب وتاج العروس مادة صَرَخَ.

(٢)سورة القصص : الآية ١٨.

(٣)سورة الأنفال : الآية ٩.

(٤)سورة فاطر : الآية ٣٧.

(٥)الأغاني ح٩/ ٢١٥.

وجهين أحدهما ما تستعمله العامة للذعر والآخر للاستنجاد والاستصراخ)[١] منها قول سلامة بن جندل[٢]:

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع *** كان الصراخ له فزع الظنابيب

والاستصراخ أما لفظي أو معنوي. فاللفظي هو ما استصرخ الرجل لحاجته للمساعدة من شخص آخر يمد له يد العون كحال أبي فراس عندما استصرخ سيف الدولة لإنقاذه من غياهب السجن. أو معنوي عندما تختل الموازين وينتشر الخطأ فيرفض الرجل ذلك الأمر مطلقـًا صرخاته الرافضة.

ولم يكن الاستصراخ غريبـًا أو حالة طارئة لفارس العرب، فقد كانت له استصراخات متعددة ولاسيما قبل أسره ومنها علىٰ سبيل المثال لا الحصر ما قاله تنديداً بآل العباس للانتصار للبيت العلوي مستصرخـًا بما آلت إليه الأمة من قعود الرجال وقيام النساء والخدم بالحكم، يقول[٣]:

يا للرجال أما لله منتصف *** من الطغاة أمـــا للدين منتقم؟!

بنو علي رعايا في ديارهم *** والأمر تملكه النسوان والخدم!

كذلك حقيقة موقفه من أسرته آل حمدان المتوترة غير المستقرة مطلقـًا صرخات قائلاً فيها[٤]:

أيا منصور خانتني ثقاتي *** فمهد لي علىٰ العدوي سرجي!

بنو حمدان حُسادي جميعـًا *** فما لي لا أزور بني طغـــج؟!

أحج إليهـم حج اعتضاد *** بعقوة عمرهم فيبـــــرٌّ حجّي

(١)الكامل في اللغة والأدب ح١ (باب وصف رسول الله للأنصار) ص٣.

(٢)م. ن: ج١/ ص٣.

(٣)الديوان: ج٢/ ص٣٤٩، طبعة ١٩٤٥.

(٤)الديوان ج٢/ ص٥٧، طبعة ١٩٤٥.

وعندما أسر ودخل السجن أنشد فيه الروائع من القصائد والتي اتسمت بالحسرة والشعور بالألم والحنين إلىٰ الوطن، ولقد تظافرت عدة عوامل مختلفة لخلق هذا الألم والحزن في نفس أبي فراس فكان أولها الأسر فهو العامل الرئيس لفارس تميز بعلو الهمة فضلاً عن مكانته الاجتماعية وكأنه سقط سقطة كسرت كل أحلامه وحطمت جل نفسيته الأبية، كذلك الابتعاد عن أمه العجوز التي أحبها حبًا جمًا، وكذلك الابتعاد عن وطنه فضلاً عن تلك الفجوة التي خلقت بينه وبين سيف الدولة، وتأخره عن الفداء، ويعد هذا العامل المؤثر في نفسيته، فانطلقت أشعاره معبرة عن هذه الآلام والتي عرفت بالروميات والتي تميزت بالجودة الشعرية ذات المعاني الرائعة والعواطف الصادقة والتي جعلته (سيد شعراء العاطفة الإنسانية ليس في عصره فحسب، بل في كافة عصور الأدب العربي)[١] ، فجودة الشعر وملكته تتجلىٰ عند الشعراء وهم بين جدران السجن، فضلاً عن الأزمات السيئة المرهقة التي يتعرضون لها ذات الأثر في إيقاظ ملكاتهم وشحذ قرائحهم[٢]. وبذلك حملت الروميات ما جاشت به نفسه من الغضب والحسرة والعتب لاسيما من أهله عامة ومن سيف الدولة خاصة، يطلبهم للفداء السريع وعدم تركه سجينًا ذليلاً، وما كان من جواب سيف الدولة لأبي فراس: من يعرفك بخراسان؟ إلا أن يولد الغضب لأبي فراس فأرسل إليه قائلاً[٣]:

أسيف الهدىٰ وقريع العـــرب ❊❊❊ علام الجفـــــاء وفيـم الغضبْ؟
وما بـــال كتبك قد أصبحت ❊❊❊ تنكبني مـــــع هـــــذي النكبْ

(١)الأدباء العشر ص٣٨٣.

(٢)أدباء السجون ص١١.

(٣)الديوان ص٢٨-٢٩.

وأنت الكريم وأنت الحليـــــم *** وأنت العطـــــوف وأنت الحدبْ
ففيم يـــقّرعني بالخمـــــول *** مولىً به نلـــــت أعلىٰ الرتب
وكان عتيـــــداً لدي الجواب *** ولكـــــن لهيبته لـــــم أجب
أتنكر أني شكوت الزمـــان *** وإنـي عتبتـــــك فيمن عتب
فألا رجعت فاعتبتنـــــي *** وصيرت لـــــي ولقولي الغلب
فـلا تنسبنّ إليّ الخمـــول *** عليـــك أقمت فلـــــم أغترب
وأصبحت منك فإن كان فضل *** وإن كـــــان نقص فأنت السبب

وتزداد نغمة الاستصراخ عالياً ويرتفع صوته مدوياً أسوار خراسان، فيستطرد قائلاً[1]:

وإن خراســـــــان وإن أنكرت *** عُـــــلاي فقد عرفتها حلب
ومن أن ينكرني الأبعـــــدون *** أَمِنْ نَقْصِ جَدّ أمن نقص أب؟
ألستُ وإيـــــــاك من أسرةٍ *** وبيني وبينـــــك فوق النسب
ودادُ تنـــاسب فيه الكرام *** وتربيـــــةومحل أشـــــــب
ونفس تَكَبّرٌ إلا عليـــــك *** وتـــــرغب إلاَّك عمن رغب

فلا تعدلن فداك ابن عمـــ *** ك لابل غلامك عمـا يجب

ولقد قضىٰ أربع سنوات أسيراً في بلاد الروم وقد عز عليه أن يبقىٰ أسيراً وهو الفارس الطليق في الساحات الميدانية، فيستصرخ سيف الدولة أن لا يتركه للأعداء والشامتين يقول[2]:

فلا تترك الأعداء حولي ليفرحوا *** ولا تقطع التســـآل عني وتقعدِ
تقعدن عني وقـــــــد سيم فديتي *** فلست عن الفعل الكريـم بمقعدِ

(١)الديوان ص٢٩.

(٢)الديوان ص٨٣.

لقد كان الشاعر يتوقع في أسره أن أميره وابن عمه سوف يسارع في فدائه ليعود أميراً فارساً متربعاً علىٰ عرشه ولكن ظنه خاب لتأخره – سيف الدولة – عن الفداء والامتناع عن ذلك مسبباً له ذلك الألم والحسرة من الوشاة والحساد الذين كان لهم آذان مصغية منعت عنه يد المساعدة يقول[١]:

رمتني عيون الناس حتىٰ أظنها *** ستحسدني في الحاسدين الكواكب
فلستُ أرىٰ إلا عدواً محاربـــاً *** وآخر خيرٌ منه عنـــدي المحارب
فكم يطفئون المجـــد والله موقد *** وكم ينقصونَ الفضل والله واهب
إذا الله لم يحرزك ممـــا تخافه *** فلا الدرع مناع ولا السيف قاضب
وكم من حزين مثل حزني ووالهٍ *** ولكننـي وحدي الحزين المراقب

لقد رصدت هذه الأبيات الهموم الحائرة ذات الحزن الداخلي المتحول إلىٰ معاناة جسدية إن كانت أو نفسية وهو ما يعرف (بالعلل الذاتية)[٢]. وقد بدت هذه المعالم واضحة في الكثير من قصائده، وبالتأكيد لا نغفل عن رائيته الأدبية الرائعة[٣]:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر *** أما للهوىٰ نهيٌ عليـــــك ولا أمر

والتي تعد من القصائد القديمة التي تميزت بالمستوىٰ الأدبي الرفيع والتي تنفس عن هموم المشاعر، وقد نالت شهرتها أن تغنىٰ بها الكثير من المطربين وأهمهم أم كلثوم فهي قصيدة تنقلت ما بين الغزل إلىٰ الفخر إلىٰ المدح إلىٰ الشكوىٰ فقد حملت في طياتها الكثير الكثير من المعاني والألفاظ الصارخة يقول[٤]:

---

(١)الديوان ص٣٦، ٣٩.

(٢)الشكوىٰ من العلة في أدب الأندلسيين.

(٣)الديوان ج٢/ ص٢١١، طبعة ١٩٤٥.

(٤)الديوان ج٢/ ص٢١٣-٢١٤، طبعة ١٩٤٥.

سيذكرني قومي إذا جــدَّ جِدُّهم *** وفي الليلة الظلمـــــاء يفتقد البدرُ
ولو سد غيري ما سددت اكتفوا به *** وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر
ونحن أنــاس لا توسط عندنـــــا *** لنـــا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنـــــا *** ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر

يشكو ويفخر ويصرخ في آن واحد لإهمال أمره من سيف الدولة وشماتة قومه الذين تمنوا فقدانه، فسيفتقد عند الشدائد كما يفتقد القمر في الظلماء، وتزداد نغمة الاستصراخ قائلاً[1]:

تمنيتم أن تفقدوني، وإنمـــــا *** تمنيتم أن تفقدوا العـــــز أصيدا[2]
أمـا أنـــا أعلىٰ من تعدون همةً؟ *** وإن كنت أدنىٰ من تعدون مولـــــدا
إلىٰ الله أشكو عصبة من عشيرتي *** يسيئون لي في القول غيباً ومشهدا
وإن حاربــوا كنت المجن أمامهم؛ *** وإن ضاربوا كنت المهند واليـــــدا
وإن نـــاب خطب أو ألمت ملمة *** جعلت لهم نفسي ومـــا ملكت فدا
يودون أن لا يبصروني سفاهـــــة *** ولــو غبت عن أمرٍ تركتهم سُدىٰ

فهو يصرخ من كراهية قومه لخلاصه من الأسر، ويستصرخ شاكياً من أناس هتكوه غيباً، وهو من كان لهم فارساً حامياً عند الشدائد. ومما زاد الطين بلة أن سيف الدولة قد شارك في كربه ومصائبه، فقد تناساه وكأن خطباً نزل به إلىٰ جانب خطوب أخر، فقد استمع لأقوال الكذب فيه مستصرخا معاتباً يقول[3]:

---

(١)الديوان ص٩٠.

(٢)أصيدا: الذي يرفع رأسه كبراً: لسان العرب مادة (صيد).

(٣)الديوان ص٣١-٣٢.

زمـــاني كلــه غضب وعتب *** وأنت عليَّ والأيـــــام إلب
وعيش العالمين لديـــك ســهل *** وعيشي وحده بفنــاك صعب
وأنت وأنت دافــع كـــل خطب *** مع الخطب الملم علىٰ خطب
إلىٰ كم ذا العقاب وليـــس جرم *** وكم ذا الاعتـــذار وليس ذنب
فـــــلا بالشام لذ بِقـــيَّ شرب *** ولا في الأســـــر رق علي قلب
فــلا تحمل علىٰ قلب جريـــح *** به لحوادث الأيـــــام ندب
أمثـــــلي تقبل الأقوال فيـــه *** ومثـــــلك يستمر عليه كذب
جنـــــاني ما علمت ولي لسان *** يقد الدرع والإنســـــان عضب
وفدتْ نفسي الأميَر كأنَّ حظي *** وقربي عنده مـــــــادام قرب
فكلمـــــا حالت الأعداء دوني *** وأصبح بيننـــــــا بحر ودرب
ظلِّلت تبدل الأقـــــــوال بعدي *** ويبلغني اغتيابـــــك ما يُغِبُّ
فقل ما شئت في فلي لســـــان *** مليء بالثنـــــاء عليك رطب
وعاملنـــــــي بإنصاف وظلم *** تجدني في الجميـع كما تحب

حرص أبو فراس في كل قصائده الرومية أن لا تخلو من الأدب والاحترام ومقابلة الإساءة بالامتنان، وهذا مما لاشك فيه لأنه أمير تربىٰ علىٰ القيم المثلىٰ والأخلاق الحسنة.

وفي خضم هذه العواطف الصارخة لا ننسىٰ المرأة التي شاطرته حياته وقاسمته آلام الأسر ومشقاته "أمه العجوز" الحنون (فهو طفلٌ يتوجع من جراحه ويشكو لأمه)[1] ، يقول[2]:

وأسر أقـــاسيه وليـــل نجومه *** أرىٰ كـل شيء غيرهن يزول

(١)الموازنة بين الشعراء ص٣١، طبعة ١٩٧٣.

(٢)الديوان ص٢٣٢.

تطول بي الساعات وهي قصيرة *** وفي كل دهر لا يسرك طول

ولكنه يعكس الصورة فيناديها أن لا تحزن ولا تتألم فيواسيها وهو الصريخ الباكي، يقول(١):

فيا أمتا لا تعدمي الصبر إنه *** إلىٰ الخير والنجع القريب رسول

ويا أمتا لا تخطئ الأجر! إنه *** علىٰ قدر الصبر الجميل جزيـــل

فهذه الأم الواجفة تنظر إلىٰ الحياة بتشاؤم وخوف وتلك هي ملامح النساء المكلومة. ويعلو حزن الأسير المقيد ويهتف صارخـًا يقول(٢):

أيا أماه كم هو طويـــــل *** مضىٰ بك لم يكن منه نصير!

أيا أماه كم سـرّ مصون *** بقلبك مـــــات ليس له ظهور!

أيا أماه كم بشرىٰ بقربي *** أتتك ودونهـــا الأجل القصير!

إن صيغة النداء لها صوت مرتفع لأن غليان الحزن قد بلغ مداه فعمق الصدمة عكس مظاهر الحزن، وعندما بلغ أبو فراس أن سيف الدولة قابل أمه بالصد عندما قصدتهُ في منبج ترجوه وتتوسله لمفاداته ، وصادف ذلك عنفـًا من الروم إليه فقد قيدوه هو ومن معه في الأسر، فأرسل إليه عاتبـًا مستغيثـًا صارخـًا، يقول(٣):

يا حسرة ما أكاد أحملهـــــا *** آخرها مزعج وأولهـــــــا

عليلة بالشـــــــام مفردة *** بات بأيدي العدىٰ معللها

تمسك أحشاءها علىٰ حرف *** تطفئها والهموم تشعلهـــا

إذا اطمأنت وأين؟ أو هدأت *** عنت لها ذكرة تقلقلهـــــا

---

(١)الديوان ص٢٣٣.

(٢)الديوان ج٢/ ص٢١٧-٢١٨، طبعة ١٩٤٥.

(٣)الديوان ص٢٤١.

فهي أبيات صارخة زلزلت كيان السجين لما حملته من صور متعددة فقد شكلت كل واحدة مفتاحاً تفتح بها في كل مرة باباً من أبواب الأمل عندما تغلق وتقيد بقيود الإحباط والمرض والحسرة. فالأسير المقيد يبحث دائماً عن النجاة صارخاً بالأمل باحثاً عن من يلبي الدعاء، يقول[1]:

أين المعالي التي عرفت بهـــا *** تقولهـــــــا دائماً وتفعلها
يا واسع الدار كيف توسعهـــا *** ونحن في صخرة نزلزلها
يا نـــــاعم الثوب كيف تبدله *** ثيابنا الصوف ما نبدلهـــا
يا راكب الخيل لو بصرت بنا *** نحمل أقيادنـــــا وننقلهـــا
لم يبقَ في الناس أمة عرفت *** ألا وفضل الأمير يشملها
نحن أحق الورىٰ برأفتـــــه *** فأين عنا وكيف معدلهـــا

وماتت أمه المكلومة وهو غائب لم يستطع أن يخفف عنها الآلام ولا أن يعالج قلبها المحطم فأغمضت عينيها قبل أن تكحلها برؤيته في لحظة الوداع الأخير، مستصرخاً بأدوات استفهامية متكررة حملت أسئلة بلا أجوبة يقول[2]:

إلىٰ من أشتكي؟ ولمن أناجي *** إذا ضاقت بما فيها الصدور؟
بأي دعـــــــاء داعية أوقىٰ *** بأي ضيـــــاء وجه استنير؟
بمن يستدفـــــع القدر الموفىٰ *** بمن يستفتح الأمر العسيـــــر؟

لقد تفوق أبو فراس علىٰ نفسه برومياته التي عبرت عن صدق العاطفة ووجعها فهو في الأسر تهيج عواطفه شوقاً وحنيناً للأهل والأقارب، وحزناً لفراقهم متمنياً لقياهم والعودة إليهم، والارتماء في أحضان أمه الدافئة والاستمتاع بكل ما هو جميل في بلده من مناظر وألوان وحضارة، فضلاً عن الحرية التي حرم منها لسنوات والتي عدت من أصعب السنون التي مر بها.

(١)الديوان ص٢٤٣.

(٢)الديوان ص١٦٣.

الخـاتمة

تلك محاولة أردتُ بها تحقيق هدف هو استخراج الشعر الاستصراخي في الأدب العباسي ومنها توصلتُ إلىٰ ما يأتي:

١. إن القرن الرابع من القرون التي تميزت بالجودة في كل أركانها من أدب وعلم وشعر وفلسفة، وعمالقة من الأدباء والشعراء والفلاسفة وكانوا تحت ظلال سيف الدولة فقد أظلهم بظل من العناية المادية والاجتماعية وأفاض عليهم من كرمه وجوده مما عاد هذا إلىٰ العصر بالجود والنفع.

٢. إن أغلب الأسماء النقدية التي نقدت القرن وصاحبه هي ذاتها من نقدت الشاعر أبا فراس من سلبيات وإيجابيات أمثال الثعالبي، وابن رشيق القيرواني.

٣. بالرغم من العمر القصير لأبي فراس إلا أنه استطاع أن يحرك الألسن تجاهه لنقده ونقد شعره ولاسيما روملياته وحتىٰ الحديث عن علاقاته مع الشعراء ولاسيما المتنبي.

٤. لم يكن أبو فراس شاعراً فقط بل كان فارسًا حقًا وشاعراً مجيداً فمن غير المعقول أن نذكره شاعراً دون النظر إلىٰ فروسيته التي جعلته بدراً في الليلة الظلماء.

٥. لم يكن اليتم سببًا في الآلام التي صبت في قلب أبو فراس بل هنالك الإمارة التي خُطِفت من أبيه سابقًا محاولاً منه إعادتها.

٦. أمه هي المرأة الوحيدة التي دخلت حياته ودخلت شعره.

٧. النقاد ما بين مادح وقادح كلهم حسب نظرته الخاصة أو ما يملأ قلبه من حقد أو حب لشخصية أخرىٰ منافسة له – أبو فراس–.

٨. لم يحظَ بعناية الأدباء والنقاد، فلم يعد حديث بعضهم عنه بإشارات مقتضبة أو اختيارات شعرية فقط.

٩. استطاع أن يحوز علىٰ اهتمام المستشرقين إن كان بشخصه أو بشعره أو بتاريخه.

١٠. وجهت الأشعار الاستصراخية إلىٰ سيف الدولة الحمداني وهي أهم شخصية في حياته طالبًا الفداء، مستعجلاً النجاة، متوسلاً أن لا يصغي للوشاة.

١١. مثلت الروميات مع استصراخاتها الحنين والشكوىٰ والشعور بالاغتراب.

١٢. ترددت النداءات في أشعاره إما لسيف الدولة مناجاة له أو لأمه مواسيًا إياها.

١٣. لن نقول بأن الروميات قد حوت علىٰ نسبة عالية من الشعر الاستصراخي لكننا وجدنا في ثنايا شعره ما يدل علىٰ الروح الاستصراخية لسجين عانىٰ المرين مر السجن ومر الأم المكلومة وهذا كفيل ليحول الأمير الراقص إلىٰ سجين صارخ.

١٤. أبو فراس استحق أن يكون تلك الشخصية التي يستعين بها العديد من الدارسين ليقارنوا بين تجربته وبين كل التجارب الحديثة وإن كان بفارق الزمان والمكان.

١٥. ليس للاستصراخ زمان أو مكان محدد، بل هو يوجد في كل إنسان وعصر باختلاف طبقاته مع اختلاف درجات الوجع.